خطاب النقد واستراتيجية الفهم الجديد للهوية النقدية

الدكتور: خليل بن دعموش

جامعة سطيف2 الهضاب ـ الجزائر

يعبر النقد بصفة عامة عن طبيعة الأشياء وحقائقها من خلال النظر في الوجود بما هو موجود، أما في النقد الأدبي فهو يعبر عن خصوصية تفكير الأفراد والمجتمعات تجاه النصوص بمختلف أنواعها. تروم هذه المقالة معالجة قضية تطور الفهم النقدي عند الغرب حيث تتبعنا أهم قضاياه الفكرية من خلال التركيز على فلسفة ديكارت الذي اتخذ من الكوجيتو منطلقا لفهم الذات من خلال الدعوة للنقد الموضوعي أو العقلي لها. وحاولنا إسقاط بعض إشكالات النقد الغربي على النقد العربي قصد تبيان المأزق الذي وقع فيه النقاد من تشتت للصفوف بين متعصب للتراث ومنادٍ بالتغريب وقد خلصنا من خلال عرض مواقفهم إلى نقاط التقاء استراتيجية قد تفيد في التأسيس لهوية نقدية تآلفية تجمع بين هذه التيارات الفكرية.

الكلمات المفاتيح: المعرفة، النقد، الغرب، التثاقف، التراث، الصراع، الهوية.

Criticism Discourse and a New Understanding Strategy of the Critical Identity

Abstract: Criticism, in general, expresses the nature of things and their realities by looking at existence as it exists. Yet, in literary criticism, it expresses the privacy of individuals and societies 'thinking towards texts of all kinds. This article aims to address the issue of the development of critical understanding in the West, as we traced its most important intellectual issues by focusing on the Descartes' philosophy who took the cogito as a starting point for self-understanding by advocating objective or rational criticism. We have tried to project certain problems of Western criticism on the Arab one in order to show the impasse in which Arab critics have signed a dispersion of ranks between fanatics of heritage and defenders of Westernization. We concluded by exposing their opinions to strategic points of convergence that could be useful for the establishment of a familiar critical identity that combines these deferent intellectual currents.

Keywords: Knowledge, criticism, West, acculturation, inheritance, conflict, identity

مقدمة: يعتبر النص الأدبي منتجا ثقافيا اجتماعيا وأداة لصناعة التواصل بين الأفراد، لا يتحقق وجوده إلا من خلال اللغة التي تجمع بين المستوى الوظيفي والجمالي

تاريخ تسليم البحث: 15 سبتمبر 2016.

تاريخ قبول البحث: 01 سبتمبر 2017.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

داخل العمل الأدبي، فيكتسب بطبيعتها قابلية للتشكل في صور لا متناهية من التراكيب الغنية بالدلالات التي تكشف عن وعي لغوي مقترن بمجموعة من المعارف التي تحيل على مرجعيات ثقافية، مما يجعله مجالا تحيا فيه الأفكار حيث يعمل مبدعه على بثها داخل مجتمعه لتعكس أيديولوجيته فـ "النص عالم مهول من العلاقات المتشابكة، يلتقي فيه الزمن بكل أبعاده، حيث يتأسس في رحم الماضي، ويؤهل نفسه كإمكانية مستقبلية للتداخل مع نصوص آنية"[1]، لأن علاقته بالنص هي علاقة حضور متداخل بين الماضي والحاضر والمستقبل، فتصبح جملة هذه الأمشاج محل جدليات فلسفية للبحث في إشكاليات كونية ثابتة ومتحولة تؤثر في توجهات الفكر والمجتمع والتاريخ، فالمبدع ولد في ثنايا سياق فكري متآلف مع طبيعة الإيديولوجيا الاجتماعية السائدة، و"الأدب بوصفه مؤسسة اجتماعية، وبوصفه عملا فنيا معا، وهو بوصفه مؤسسة اجتماعية، مجموعة من تلك الممارسات والعادات التي تتحكم في ضخ الكتابات ودورانها في مجتمع معين، يمثل المنزلة الاجتماعية التي يتبوؤها الكاتب، وإيديولوجيته، وأشكال انتشاره، وظروف استثماره و(استهلاكه) وما يحظى به من إقرار نقدي. ويتألف _الأدب_ بوصفه عملا فنيا _في الدرجة الأولى_ من عدد من أنواع الاتصال اللغوي المكتوب"[2] وعليه، فالإبداع الأدبي يساهم بشكل فعال في تشكيل فسيفساء الحياة الثقافية المرتبطة بالوعي الاجتماعي والثقافي للفرد والمجتمع ككل، لـ"أن الإبداع الأدبي نوع راق من العمل الاجتماعي ومادة البناء في الأثر الأدبي هي الكلمة، أي الشكل المتميز للوعي"[3]، بما أنه يؤسس لإنتاج المعرفة مستقبلية بطبيعة العلاقة الكائنة بين الذات والموضوع، بمعنى أن حده هو إنتاج الوعي بالقيم لا بالأشياء حتى وإن كانت هذه الأشياء تمثل الأساس الذي تنبني عليه القيم لأن وراء مظاهر الوحدة والتجانس تبدأ تباينات الفروق، وبالتالي لا يفهم منه إنتاج معرفة بالموضوع أو بالذات معرفة علمية أو منطقية.

يمثل النقد ذوقا روحيا راقيا وفلسفة ثقافية تعكس فكرة الهوية وسؤال المستقبل عند كل الشعوب، فبقدر حضوره في تكوينها الفكري يكون التقدم، حيث تنتظم أو تختلف به طرق التعبير وتتحدد عليه أنماط استجابات الآخرين، فهو إذن: منظومة فكرية اجتماعية ثقافية منتجة للتواصل تشمل كل مناحي الحياة، تعبر عن قناعات مشتركة أو رؤى فردية لتجسد تجارب مختلفة مكتسبة من الحياة أو من المعتقدات الدينية تبين صفة التأثر بهما أو تفسرهما، لذلك تخضع العملية النقدية للنصوص الأدبية بشكل عام، لمجموعة من المنطلقات الفلسفية أو الثقافية وفق إجراءات تحليلية محددة سلفا في شكل مصطلحات- من باب أن مفاتيح فهم العلوم هي مصطلحاتها- تتضمن أصولا وقواعد نقدية تطبق على لغة النص عند تقويمها من منظور علمي أو إبداعي، بما يقتضيه فهم جمالياته، واللغة في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كل ذلك مادة خام لهذا الإبداع لأنها تجمع دائما بين الذاتية والموضوعية في عملية المقاربة النقدية للعمل الأدبي، فـ" كلما أصغى الإنسان إلى اللغة، مستطلعا معانيها ومستشرفا آفاقها، تهيأ له، من غير أن يتخلى عن وضعية الإصغاء، تهيأ له أن يتصل بالكينونة الحقة التي تقوم على أصلها جميع الموجودات"[4]، وعلى ذلك اعتبر النقاد والفلاسفة الغربيون المناهج الحداثية وما بعد الحداثية لغة النصوص بمثابة الحادثة المعرفية أو الثقافية المكانية التي لا بد من ربط مضامينها بمظاهر تطور العقل الحسي، وبالتالي وجب تفسيرها في إطار ظروف نشأة وتطور العقل الناقد للمكتسبات الاجتماعية والثقافية، وأن يتعامل مع الأدب كمؤسسة اجتماعية منتجة لها. وعلى ذلك وجب التحفظ بعقلانية مع الكثير من التفسيرات التي تحيل على تأويلات غيبية، من خلال وجوب إعادة النظر في أسس النقد، بإعادة قراءة كل النصوص الأدبية وغيرها قراءة تقود للمعرفة المجردة.

1-منطلقات المعرفة النقدية الغربية

أحدثت النهضة الأوربية في القرن 16 بوصفها مقدمة للإصلاح الديني والكشوف الجغرافية_ ثورة في مجال الطبيعة والعلوم المتعلقة بها، وأنتجت تحولات جذرية في أسس الفكر الفلسفي والسياسي بدءا من ميكافيلي إلى ديكارت وهوبز...[5]، حيث تميزت بنزعة إنسانية خالصة تمثلت في إعادة بعث الكثير من قيم الآداب اليونانية التي تطورت بها العملية النقدية للنصوص الأدبية في العالم الغربي في ضلال ثورة فكرية وفلسفية على طريقة التعامل مع النصوص المقدسة التي كانت تحمل صفة مصادرة العقل المسيحي فقد "أفسدت الكنيسة الإنسان وأضعفته، ولكنها ادعت أنها أصلحته"[6]، فتحولت النصوص المسيحية المقدسة من تأريخ لحياة المخَلِصْ إلى نص يعبر عن فترة تاريخية، وانطلق منها تاريخ الدين والمؤسسات، وتم خلالها الانفصال التام بين ميتافيزيقا الدين والتاريخ وبين الفكرة والواقع، وبُشِر بمحورية الإنسان في الوجود، وبأنه إله ذاته مستقل بوجوده بنفسه، يشرّع لها ما شاء وكما أراد، لأنه لا سلطان عليه خارج ذاته.

بدأت بذور النقد الغربي الحديث في أول عهدها أميل إلى الاتجاه نحو الفلسفة منه إلى الأدب لخصوصية الموقف المعرفي، فكانت هذه النهضة الفكرية تدعو لإحياء التراث اليوناني ابتداء من منتصف القرن 15م، حيث ظهرت ثمار ثقافة المدنية اليونانية في عقول الغربيين؛ بما أن "الإنسانية كلها مدينة لليونان بفلسفتهم النظرية والعملية التي ليس من شك في أنها كانت من نتاجا عقليا خصبا وعملا روحيا جليلا للعبقرية اليونانية، ذلك بأن فلاسفة اليونان هم أول من فلسف على الحقيقة وهم أول من تأمل تأملا فلسفيا في بحثه عن الحقيقة"[7]، فانتشرت أفكار أفلاطون بينهم والتي كانت تبحث في فهم الطبيعة المادية من حولهم بعيدا عن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التفسيرات الدينية، فتقمصوا فلسفته في التفكير القائمة على "تحول النفس كلها عن العالم الفاني ليمكنها التفكير في عالم الحقيقة، وفي أنهى قسم منه، وهو ما ندعوه صورة الخير"[8]، تحذوهم في ذلك رغبة شديدة في معرفة طبيعة العالم المحيط بهم، فكان من أول أعمالهم تقرير حق أوليّة العقل في الحكم على كل الأشياء المدركة، لأن "العقل هو أحسن الأشياء توزعا بين الناس بالتساوي، إذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه الكفاية، حتى الذين لا يسهل أن يقنعوا بحظهم من شيء غيره، ليس من عادتهم الرغبة في الزيادة لما لديهم منه وليس براجح أن يخطئ الجميع في ذلك"[9]، وبالتالي أعطوا مطلق الحرية لكل فرد يريد أن يفكر أو يبحث أو ينتقد كل شيء مدرك من دون الخضوع أو الرجوع لأية سلطة خارجية عنه، ولأن يدعو إلى فلسفته الخاصة، لأن "الإنسان أصبح يدرك المبدأ التقني البنائي للشيء المعني أو للظاهرة المعنية من ظواهر الطبيعة، وهو بذلك يفصل فكرة الشيء عن الشيء نفسه، ويستطيع استخدام مبدأ هذا الشيء، أو هذه الظاهرة ليقوم واعيا بالخلق وبالإنتاج من أجل استهلاكه الخاص"[10].

أصبح بذلك مفهوم النقد _من خلال هذه النظرة الفلسفية_ ممارسة فردية، وانتقل بفضلها الفكر النقدي الأدبي الغربي الحديث من موقع المفسر إلى موقع المنظر كما قال ديكارت: "أننا لا نملك شيئا بصفة تامة سوى أفكارنا"[11]، وصار العقل الغربي بهذا ناقدا للنصوص بكل أنواعها وصانعا للمعرفة، متجاوزا بذلك كل الخطوط والمقدسات الموضوعة أمامه، وقاد الفلاسفة أولا ثم النقاد حركة الإصلاح الديني. بالثورة على سلطة الكنيسة من خلال المناداة بحق التفكير الحر والمنطقي الذي يقود إلى حرية الحكم الشخصي على كل الأفكار والمسلمات القديمة للإنسان الغربي، فنادوا بإعمال التجريب في كل ميادين العلوم الإنسانية، وبتحرير تفسيرات للنصوص المسيحية من قيود النظرة الميثولوجية أو الكلاسيكية القائمة على التسليم اللاواعي لكل تفسير غير منطقي، وهذا يتم من خلال الإيمان بقدرة العقل على اكتشاف كل أسرار الدّين وبالتالي فهم طبيعة الأشياء كما هي، وعلى هكذا قاعدة استقل النقد الغربي بذاته عن وصاية الأحادية الفهمية، وانبثقت جراءه العديد من الاتجاهات الفكرية والمدارس النقدية التي تطورت مبادئها وفق التنظيرات التالية:

أ- **الاتجاه العقلاني**: يرى فيه أصحاب هذا التوجه التنويري[12] أن العقل هو مصدر المعرفة اليقينية؛ لأنه بطبيعته الوظيفية يتوفر على معارف أولية وصفات بيولوجية تتيح له اكتساب معارف يقينية بواسطة قواه الإدراكية الخاصة، دون حاجة إلى الحواس التي من طبيعتها أنها تخطئ أو تهيأ لها الأشياء، وقد كان ديكارت -René Descartes - يرغب في إرساء بنائه الفلسفي على قواعد عقلية بائنة، مما دفعه إلى الشك في كل المعارف التي سبق أن تلقاها، فيقول "كل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت بأنه أصدق الأشياء وأوثقها قد اكتسبته من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحواس أو بواسطة الحواس، غير أني جربت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتها خداعة، ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو لمرة واحدة"[13]، فالنقد المنهجي عنده قام على مبدأ الشك القائم على اليقين كبداية الأساس الواجب الانطلاق منه للوصول إلى المعرفة المرجوة بمعنى أنه انطلق من الموضوع ليعود إلى الذات، والعقل في ذلك هو مصدر الحقيقة؛ لأنه يذعن لها ولا يشك فيها، وليس كما هو الحال بالنسبة إلى الأفكار الغامضة أو المعقدة المكتسبة بفعل التلقين أو التي تنجم عن طريق التخمين أو التخيل والتي تختلف كلية عن الأفكار الفطرية للإنسان، لـ" أن الأفكار الفطرية هي الأفكار التي لا دخل للخيال في حياكتها، ولا شأن للملاحظة الحسية والتجربة في صنعها، فهي أفكار بديهية حسية يؤمن بها كل إنسان عاقل؛ لأنها لا تثير أي شك في صحتها، لأنها تتصف بالوضوح المطلق مثل فكرة الكوجيتو والكل أكبر من الجزء"[14]

ب- **الاتجاه التجريبي:** قام هذا الاتجاه بوصفه رد فعل طبيعي على الاتجاه العقلي يختلف معه نظريا في طريقة البحث والتأسيس للمعرفة الإنسانية، انطلاقا من أن التجربة والحس هما المصدران النهائيان لكل معرفة، منكرين عليه فكرة أن يولد العقل مزودا بأفكار فطرية، فليس في العقل شيء لم يمر بهما أولا، فـ"الإنسان حين يستخدم عقله ويعرف هذه المبادئ يستنتجها استنتاجا من بعض الأفكار الأخرى، وبالتالي فلن يكتشف العقل ما كان فيه من قبل، وبالتالي فلن تكون هذه الأفكار فطرية فيه"[15]، فالفكر دوما منخرط بالضرورة في أنساق ومسالك سابقة له في الوجود دعواهم في ذلك أن المعرفة القائمة على التجريب أوثق معرفة من المتصورة في الأذهان، لأنّ المعرفة التجريبية "تكون يقينية باعتمادها على أساسين وهما الحدس والبرهان؛ بالحدس ندرك العلاقة إدراكا فوريا كما تدرك العين الضوء، وهي قوة قائمة في الذهن تجعلنا نعرف الحقيقة بيقين مطلق، أما البرهان فيزودنا أيضا بيقين مطلق، ولكنه يختلف عن الحدس في أنه يشمل عنصر الذاكرة، فهو عملية فيها جهد، ومشقة، وانتباه، فالذاكرة تكفل للذهن القدرة على استرجاع الخطوات التي تمكنه من الوصول إلى النتيجة المطلوبة، ولهذا لا يجب أن نعتمد على البرهان كاعتمادنا على الحدس"[16]، ولعل السبب في هذا التوجه النقدي لنظام الأفكار كان بسبب تصوير أصحاب الاتجاه العقلي للأوهام التي وقع فيها العقل البشري في تفسير الظاهرة أو تبريرها والتي أدت لتخلفه المعرفي وهي أنواع منها:

ت- **أوهام القبيلة أو الجنس:** هي حالة ذهنية يمارس فيها العقل الكلي حالة من الوصاية على الضمير الجمعي للمجتمع وقد مر بها العقل الغربي لفترة زمنية طويلة سماها بعصور الظلام، حيث ظل الإنسان الغربي محاصرا بأسئلة القرون الماضية، يكررها ويستعيدها ويدور حولها في حلقة اجترار مفرغة، وكان فيها التوجه العام للفهم مكرسا لفكرة أنه لا يقبل من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أفراده إلا ما يوافق صيرورة سياق الفهم القبلي، وبالتالي فهو لا يلتفت إلى منجزات التجارب الفردية التي لا تتوافق وأفكاره وانطباعاته فارضا نسقا تلقينيا مركزا على جانب اللاوعي في الطبيعة البشرية، وهكذا يكون تفسيره لبعض المظاهر الاجتماعية المتجذرة في اللاوعي والتي لا يحكمها الاقتناع النظري كالخرافات والسحر والأحلام والتنجيم بأنها من مظاهر الالتحام أو المشترك الفكري التي تعكس الامتداد الزمني والهوية الثقافية له، ف "عندما تحاول قبيلة ما أن تدفع عن نفسها وباء التيفوئيد عن طريق مطاردة السحرة، فإن ذلك يبدو أمرا منطقيا، لأن ثقافة هذه القبيلة تقرر مسؤولية السحرة عن جلب هذا المرض، فالنظام الثقافي هو نظام يحدد شكل التعبير وردود الأفعال"[17].وقد حدث رفض من جانب الاتجاه التجريبي لهذا الوهم حينما تبينوا حقيقة الأشياء، وهذا ما دفع ديفيد هيوم الى القول بأن:" جميع الإدراكات العقلية تنقسم إلى قسمين متميزين هما الانطباعات والأفكار"[18] بمعنى أن بداية المعرفة النقدية تبدأ من التمييز بين الانطباعات الناتجة عن اللاوعي والأفكار الناتجة عن الوعي، فولادة السؤال مشروطة معرفيا بنوعية علاقات الذات بالموضوع.

ث - **أوهام الكهف أو ضعف التفسير البشري:** يمثل مرض الوهم وضعف التفسير البشري الكامن في كل شخص والذي يصيب العقل الجمعي حاجزا حقيقيا في تحقيق المعرفة النقدية، وقد صور مفهومه أفلاطون في شكل" مجموعة من الناس مسجونين في كهف مظلم منذ الصغر ولقد قيدوا في هذا الكهف منذ ولادتهم وأداروا وجوههم إلى شاشة على جدار الكهف تنعكس عليها ضلال ما هو في خارج الكهف من ضوء ينير عالما من الناس الذين يسيرون حاملين عرائس خشبية على أكتافهم، ولما كان هؤلاء مسجونين لا يستطيعون أن يلتفتوا وراءهم فإنهم يظنون الظلال التي على جدار الكهف حقائق ويتوهمون ما يسمعونه في خارج الكهف من أصوات أنها صادرة من هذه الأشباح فإذا تمكن أحدهم من أن يخرج من الكهف ليرى الحقائق في الخارج وعاد هذا الرجل ليخبرهم أنهم واهمون فيما يضنونه انه حقيقة يسخرون منه وينكلون به"[19]، فالعجز العقلي عن احتواء الحقيقة الخارجة عن المدركات القريبة، يؤدي به إلى نوع من العزلة الاجتماعية والثقافية ويحصر كامل التفكير في اتجاه معين كأنه كهف يزداد ظلمة كلما ولجنا فيه، فيصير عقل كل إنسان سجين كهفه وبالتالي لا يفكر إلا طبقا للظرف الخاص به.

ج- **نمط التفكير:** لعل أحسن من يمثل المجتمع وتطوره الفكري والثقافي هو صيرورة السلوك المعبر عن ارتقاء نمط تفكيره، من خلال التفاعلات الحادثة في وسطه لأن"الذهنية تنطوي على رؤية خاصة للعالم وعلى طريقة للتعامل مع الأشياء وعلى مواقف خاصة بعناصر الوسط الذي يحيط بالإنسان، ولا نعني بذلك أية عناصر لا على التعيين، بل يشار إلى العناصر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأساسية للهوية التي تنطلق منها الرؤية الخاصة بالوجود، وتشكل هذه العناصر الهامة التي تأخذ فيها الجماعة موقعها العناصر العقدية والقالب الأساسي الذي تتشكل فيه هوية الجماعة وأسسها ولا يختلف حال الذهنية عن حال الثقافة المستبطنة إذ يمكن للذهنية أن تأخذ تكاملها تحت شكل نظام من المقدمات والتصورات الثقافية"[20]. فالذهنية السائدة في أي مجتمع هي تعبير حقيقي لما هو موجود وانعكاس صادق لما يدور من تفاعل ثقافي ولغوي مشترك داخل المحيط الاجتماعي بين أفراده، والذي ينعكس سلبا أو إيجابا على النقد الذاتي، لأن في مناخه تكتسب الثقافة النقدية واللغوية غناها من حيث الألفاظ وتتطور المفاهيم.

2- **الاتجاه النقدي:** ربما يرجع فضل التحول الحاصل في قيم ونوعية الدراسات النقدية للعقل الغربي بشكل كبير إلى ايمانويل كانط في كتابه" نقد العقل المحض"، بمحاولته النقدية المعرفية التي تهدف إلى حل مشكل ثنائية العقل والحواس من خلال توفيقه بين المعطيات الحسية والمفاهيم العقلية، فكلاهما يقود إلى المعرفة، فيقول: "تبدأ كل معرفتنا مع التجربة ولا ريب في ذلك البتة؛ لأن قدرتنا المعرفية لن تستيقظ إلى العمل إن لم يتم ذلك من خلال موضوعات تصطدم حواسنا، فتسبب من جهة حدوث التصورات تلقائيا، وتحرك من جهة أخرى نشاط الفهم عندنا، إلى مقارنتها وربطها أو فصلها وبالتالي تحويل خام الانطباعات الحسية إلى معرفة بالموضوعات تسمى تجربة"[21].

فالمعرفة البشرية بالمنظور النقدي لـ "كانط" معرفة واقعية، تكشف عن واقع موضوعي يعيشه الإنسان الغربي يتم فهمه بفضل توظيف المبادئ الأولية التي يتوفر عليها العقل البشري قبل التجربة، وهذا ما أرجع للعقل مكانته الأساسية في بناء التصورات، واكتساب المعارف دون إهمال دور التجربة كمرحلة ثانية في تنبيه العقل، وما انجرّ عن ذلك من انفصال منهجي عن سلطة الدين، فلم يعد النقد عموما مقيدا بقيود الكنيسة وتحرر كلية نحو معايشة الواقع العلمي التجريبي في سائر المجالات، وصار يتميز بالموضوعية الخاصة بالبحث العلمي في سبر أغوار النصوص بكل أشكالها وتحري جزئياتها وتفصيلاتها، من دون الوقوع في كبوة التعميمات الشكلية، لأن "العقل ليس لوحا جامدا من الشمع تكتب عليه الأحاسيس، بل هو عضو نشيط يسبك وينسق الإحساسات إلى أفكار، ويحول ضروب التجربة الكثيرة الغير منظمة إلى وحدة من الفكر المنظم المرتب، وعملية سبك وتنسيق الإحساسات إلى أفكار تتم وفق ما يسميه كانط بالفلسفة السامية، وهي التي تعنى بالأفكار الفطرية البديهية عن الأشياء، وتتم المعرفة السامية على مرحلتين تتم فيهما عملية تحويل مادة الإحساس إلى إنتاج الفكر التام، الأولى تنسيق الإحساسات الآتية من الخارج، وإضفاء قالبي الإدراك الحسي وتطبيقه عليهما وهما المكان والزمان"[22].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بناء على هذه المبادئ التنظيرية لفلسفة نقد المعرفة، تحول النقد الغربي بالاتفاق مع ما توصل إليه العلم التجريبي الحديث، من متلقي للنصوص إلى مسبار لها، وفي ضوئه اقترب من فهم الواقع وصار يميز بين مصطلحات القيم وانتقل بذلك من متخيل المثل إلى حقيقة عالم المادة، وصار يقوم بتمحيص وتوظيف النتائج الدقيقة للأبحاث العلمية ليكوّن منها النظريات والتصورات في مجال العلوم الإنسانية، وفتح بذلك آفاقا جديدة تتناول الإنسان والدين والعالم وتتلمس مشاكله اعتمادا على الموضوعية في الفهم متناولا كل المجالات الفنية والأخلاقية والغيبية، بشكل لا تتعارض فيه هذه النظريات مع نتائج البحث العلمي أو تخل بمبادئه.

3- إشكاليات التثاقف النقدي عند العرب: تُعدّ ظاهرة المثاقفة" acculturation" بين الحضارات الحيّة سنّة كونية لا يجادل في حدوثها وتعاقبها على كل الأمم، لأنّ ثمارها الثقافية تميل بطبيعة أغصانها إلى الامتداد، فهي تداول وتبادل للثقافات المكتسبة وتعميم وتخصيب لفوائد الإبداع والعبقرية الإنسانية على سائر البشر بتأثير عامل الزمان واختلاف جغرافية المكان، حيث تتداخل هذه العلاقات وتزدهر المفاهيم وتتشابك في كل الميادين العلمية والأدبية داخل بوتقة المعرفة الحضارية التي تقود إلى المدنية، لأن" المدنية لا تتوقف على جنس دون جنس، فقد تظهر في هذه القارة أو تلك، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك، قد تنهض مدنية في بيكين او دلهي...فليس هو الجنس العظيم الذي يصنع المدنية بل المدنية العظيمة هي التي تخلق الشعب، لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته، والثقافة تخلق النمط الذي يصاغ عليه"[23]، فالمدنية سلوك مكتسب يعكس تطورا في الفهم الإنساني، وهي إنتاج مشترك يجمع بين مختلف الشعوب حيث تصنع الثقافة إنسانيتها؛ لأن التحضّر قبل كل شيء روح محركة تدفع المجتمعات فكريا إلى الأمام لأنها" نتاج بشري مرتبطة بالجهد الإنساني، والعمل الدؤوب، والزمن التاريخي، وتتأسس الحضارة على مقومين بارزين، مقوم مادي يتمثل في التكنولوجيا، ومقوم معنوي يتجسد في الثقافة، ولتحقيق الحضارة، لابد من صيرورة عملية وإنتاجية وإبداعية مكثفة ومستمرة عبر التاريخ والزمن لجني الثمار المادية والمعنوية"[24]، فترغمها تلك الرغبة الحضارية على الانفتاح الكلي على ثقافة الآخر، والاطلاع الكثيب على منظومة تفكيره من خلال الإقبال المباشر على كل ما أُنتِج أو أُكتُسِبَ حضاريا من مختلف المعارف والفنون والآداب والعمارة والتقنيات العلمية بفضل الاحتكاك المباشر معها، لأنه من متطلبات حدوث التطور والازدهار الاجتماعي والثقافي هو التراكم النقدي والتجريب في البنى المؤسسة لكل إنجاز معرفي، وهكذا كلما كانت حركة المثاقفة تواصلية كانت تأثيراتها على الهوية إيجابيالأن التفاعل الاجتماعي ركن أساس في صلب الممارسة الإنسانية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

4-إشكالية فهم التراث: خرجت معظم المجتمعات العربية من ركود فكري وغياب حضاري عن المشهد العالمي بدءا من الخلافة العثمانية إلى هزيمة1967، مكتشفة أن المجتمعات الغربية قد أنهت تقريبا مشروع بناء الإنسان الغربي المتحضر المؤمن بقيمها[25] وحضارتها، وصار يحقق اكتشافات علمية متتالية، وفهمت أن حقبة السيطرة الأحادية التي كانت تمثل آخر عنقودها قد ولّى وأن زمن استقطابها الحضاري قد اندثر، فـ" لقد كانت قيادة الدنيا، في وقت ما، شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة.. فورث الغرب القيادة العالمية"[26]، وسلّمت بأن أسباب سيطرة الثقافة النقدية الغربية هي المبادئ الحداثية القائمة على التجريب في كل الأمور المتصلة بوجود الإنسان، وأنها قطعت في سبيل نهضتها الكثير من صلاتها بالقيم الإيمانية الكهنوتية، وأعادت تفسير الأقانيم الثلاث، فاشتغلت بالإنسان كذات فاعلة موجودة بدلا من الله، واعتمدت على تفسيرات العقل بدلا من الوحي وبالتالي كرست كل مجهودها على اعتبار الدنيا حقيقة الوجود ومنتهاه، واعتبرت كذلك أن معاني النص المقدس وإسقاط دلالاته على كامل الحياة الأخرى تبقى تأويلا ميتافيزيقيا يستحيل في غالب الأحيان دراسته أو تحققه، وها هي الآن تجني ثمار هذا الجهد المكلف، في حين لم يستطع العقل العربي أن يستوعب ذاته وتاريخها، أو يدرك كيفية التعامل مع كل ما يمتلكه من قيم ثقافية ومعارف قبلية مثبتة من خلال حضور نصوص دينية ثرية ومؤثرة في فضاءه الجغرافي، وبقيت بذلك الذات النقدية العربية تراوح مكانها، دون أن تحسم أمورها مع الدين والهوية والتراث والقبيلة أو العشيرة وهذا ما مهد لظهور أسئلة معرفية وجودية من طرف فعاليات ثقافية مختلفة، تبحث في سبل الخروج من بؤس الواقع الحاضر لتصحيح وضع الأمة ككل من قبيل :ما هي أسباب ضعف الأمة حتى يتمكن الغرب من اكتساحها ويهيمن عليها؟ هل نصلح المجتمع بالعلم أم بالدين؟ ما موقفنا من النظام المعرفي المتوارث ؟ هل يمكننا إصلاحه أم استبداله ؟ هل الحل يكون بالاندماج في الثقافة العالمية أم بالتمسك بالثقافة النقدية الدينية؟

5- صراع الهوية النقدية: بقدر ما شكلت عوامل التقدم النقدي الغربي وتطورات صوره الحضارية القائمة على التجريبية العلمية موضع انبهار كبير لدى العديد من النخب العربية على اختلاف مشاربهم وتوزعهم الجغرافي على كامل الوطن العربي تطارحت أسئلة نهضوية تبحث في سر تقدم الغرب لتسلك الطريق قصد اللحاق به؛ لأن الحاضر النقدي صار مقلقا أو مثقلا بأنواع الهزائم خصوصا المعرفية منها، مما جعلهم يؤمنون بأن جسد الأمة عدم من أي مناعة داخلية قادرة على تحريكه، ومن ثمة وجب التحرك حثيثا نحو الغرب الأنموذج التجريبي الذي يستطيع أن يقدم الأفكار على عكس الآخرين اللذين دعوا إلى وجوب المحافظة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على قيم التراث القديم والاستماته في الدفاع عن مقومات الأدب العربي والأعراف النقدية وعن كل منجزات الحضارة الإسلامية المتصلة زمنيا، **فـ" ليس كل تجريب فعل تجاوز بالضرورة، فقد يكون التجريب قفزة في المجهول دون تحقق التجاوز المأمول في حركة الإبداع"**[27]، لأن تجربة الحضارة الإسلامية تمثل عندهم عصرا ذهبيا ومرجعية حضارية لا بدّ من الرجوع إليها لمعرفة سر تطورها، وإن كان هذا الماضي هو إطارها الأوحد في القيمة؛ وبالتالي يجب عليهم إعادة إحياء ودراسة منجزات رجالها وأعلامها دراسة حديثة ذات نزعة عقلانية بدعوى أن تراثنا لا يختلف في الكثير من قيمه ومنطلقاته عن إرث الحضارة الأوربية، لـ "أن ما يميز العقل العربي بوصفه عقل الثقافة العربية الإسلامية، هو أن العلاقات داخله تتمحور حول ثلاثة أقطاب هي الله، الإنسان، الطبيعة"[28]، وعليه، فعملية المثاقفة مع الغرب المتحضر يجب أن تخضع لخصوصية كل الأطراف المتفاعلة، كما يمكن أن تأخذ صورا عديدة ترتبط بطبيعة اختلاف مفهوم الثقافة نفسها، بما" أن الفكر الإسلامي لا يسلم بفكرة وحدة الوجود الروحية (pantheism)، ولا بوحدة الوجود المادية (pancosmism)، وإنما يقر بتعدد مستويات الوجود، أي أن هناك هرمية وجودية حقيقية بالغة الاختلاف وهي الله، الإنسان، الوجود وهذا يقتضي تعدد مصادر المعرفة، لا أحادية المصدر[29]، فالاعتقاد بالغيب من ثوابت الفكر الإسلامي، وهذه ميزة تميزه عن الرؤية الفكرية الغربية المادية منها المستلهمة من المثالية الأفلاطونية التي تدور حول محورين هما الطبيعة والإنسان.

هذا الأخير دخل في أزمته الفكرية والوجودية لأنه انطلق في كثير من أطروحاته الثقافية من النظر إلى الإنسان كقطعة من مستقيم؛ أي يبدأ حياته من نقطة محددة وينتهي عند نقطة أخرى، هذا يفضي دون شك إلى انحطاط خطير، ستنعكس نتائجه مستقبلا على مستوى العقل؛ لأن مبررات الفشل التي يتخبط فيها هذا الفكر تبدأ من المقدمات النقدية التي سلم بها وهي مقدمات تلتقي عند معنى الموت الذي يساوي العدم، وعلى هذا الاختلاف في تفسير فكرة المثاقفة، ظهر صف من النقاد المعاصرين في ثوب المدافع عن خصوصية الهوية النقدية العربية ملتمسين استنهاض القيم المدفونة في الكتب التراثية وحفظ تقاليد الفهم التي تمثل العقل الإسلامي والعربي، وهذا ما يقول به فهمي هويدي:" إن مشروعنا الحضاري لا قيام له بغير الإسلام والعروبة "[30]، فكل نقد أو توجه نقدي أو نظام فكري يجب أن تكون له مرجعية متصلة مع الإسلام أولا ثم العروبة ثانيا، ويجب أن يظهر ذلك بشكل جلي في كتابات النقاد سواء بوعي أو بغير وعي لأنه لا وجود لفكرة يتيمة.

بناء على ذلك، فإن معيار سلامتها يعتمد على مدى قوة تسلسلها التاريخي، لأن الثقافة النقدية العربية في مبادئها وأصولها وفي مفاهيمها ودلالاتها، تنبع من جوهر رسالة الإسلام

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السمحة النابعة من النص القرآني ومن فهم العقل العربي للأشياء، فهي ثقافة إنسانية بالمعنى العمودي، ولكنها تنفتح بشكل أفقي على كل ثقافات الأمم والشعوب، فمصدر ثرائها وقوتها ومناعتها يكمن في هذه الخاصية، لـ" أن عبقرية الإسلام وقدرته الروحية لا يتناقضان البتة مع العقل كما هو الحال في الأديان الأخرى؛ بل ولا يتناقضان مع الفلسفة الوضعية نفسها ؛ فالإسلام يتماشى أساساً مع واقع الإنسان _ كل إنسان _ بما له من عقيدة مبسطة، ومن شعائر عملية مفيدة "[31]، ورغم هذا الانحياز الواضح للهوية العربية والإسلامية لهذا الصف من النقاد، إلا أننا نجد في تاريخنا الثقافي كذلك آثارا عديدة تبيّن أنه قد سبق لهذه الحضارة وأن تمازجت مع الحضارة اليونانية وأخذت عنها الكثير من المعارف، مثلما صرح بذلك الكندي الذي يقول:" ومن أوجب الحق ألا نذم من كان أحد أسباب منافعنا الصغار الهزيلة؛ فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية، وينبغي ألا نستحي متن استحسان الحق, واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، لأنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق"[32].

تبعا لما سبق، فإن اقتفاء آثار تقدم الغرب المعرفي والتقني لم يكن يعني بالضرورة وجوب التخلي أو الانسلاخ التام عن الهوية ومكونات الشخصية العربية الضاربة في التاريخ بسهولة، بقدر ما كان يعني البحث في خصوصياته النوعية، وعن أوجه الاختلاف المعرفي الحاصل بين الحضارتين، وهذا التساؤل الوجودي هو السبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله أن ينظر العقل العربي إلى أزمنة تطور العقل الغربي، لـ" أن جنيالوجيا الذات هي في نفس الوقت جنيالوجيا الآخر، فالسؤال عن "النحن" يعني أيضا السؤال كيف أصبح غيرنا "الآخر" وما هي أشكال "الغرب التي صنعها الخطاب العربي؟"[33]

6- **المثاقفة النقدية:** لعل لصفة التلازم المنطقي بين الأدب والنقد والثقافة وأسس التطور الحضاري الغربي، قد أوجد حالة من الانبهار الشديد اجتاحت العقل النقدي العربي المعاصر الذي توقف ساكنا أمام قوة تلاطم أمواج من المعارف الإنسانية المتصلة من خلال توالي الاكتشافات وفي ميادين متعددة، جعلت طه حسين الذي يفسرها بخلفية تاريخية تعكس اضطرابا فهميا فيقول:"لو أنّ هذه الحضارة الحديثة أُزيلت وأريدَ تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطو طاليس أساسا لهذه الحضارة الجديدة"[34]، لأن ما صاحب ذلك التطور هو ظهور أنماط نصوص أدبية مستحدثة كالمسرحية والرواية والقصة لم يعرفها التراث الأدبي العربي بصفتها الحالية، مما يتطلب التسليم التام بكل الأدوات المعرفية التي سنها النقد الغربي والتي تطورت تطورا كبيرا بفعل تطور العلوم الحديثة، لـ "أن النقد يكشف بدوره في الأدب عن الإنسان في محيط اجتماعي عادي، في الأسرة أو المجتمع الخاص به، أو بنواحيه المختلفة، فيكشف بذلك

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عن طبيعة الإنسان في ذاته وعن كفاحه في تحقيق مصيره، سواء كان هذا الكفاح ضد الطبيعة أو ضد قيود مجتمع ما، أو ضد من يقفون في سبيله من الأفراد"[35].

اختلط هذا الانبهار بإدراك عميق لكثير من النقاد لتخلف منظومة التجربة النقدية العربية عما هو حاصل في أوربا، ومنهم محمد بنيس الذي يقول: "في أوروبا الحديثة تمكّننا الانفصالات النصية وإبدالات ممارساتها من رؤية أسبقية المعرفي وتفاعله مع الاجتماعي - التاريخي"[36]، فهو يرجع كامل العلة في_ وجوب اللجوء والاستلهام من الغرب_ إلى التفاوت المعرفي الكامن في امتلاك الجرأة في تناول النصوص، وإلى اكتمال سلسلة الفكر التثاقفي في أوروبا ومقدرته على إحداث شرخ كبير على مستوى المسلمات التقليدية السائدة، الأمر الذي حرر الفعل النقدي من السكون الزمني للآلة النقدية وجعلها مدركة لروح المسؤولية الحضارية، وبالتالي أتاح إبداع أطر رؤيوية جديدة تحول دون العودة أو الانكفاء على التراث المحلي، بعكس ما حدث عند النقاد العرب الذين تعاملوا مع النقد بمنطلق الإيديولوجيا حتى صار تاريخ الثقافة النقدية العربية هو ذاته تاريخ تطور الصراعات ومصدر التوترات السياسية؛ ذلك أن الفكر العربي والإسلامي انطلق من مسلمات الماضي في سعيه نحو التجديد والانفتاح على العصر من دون التخلص من كامل إشكالاته، ما أربكه من الناحية النظرية وأوقعه في صراع الهوية، وولّد عندهم تشتتا معرفيا انعكس على صلابة أسس الهوية النقدية العربية والإسلامية بشكل عام، فأصابها شرخ في العمق وبقيت محاولات التجديد حيالها عاجزة تماما على دراسة التراث دراسة عقلانية وإدراك خصوصية التعامل مع الحداثة ومسائل الأصالة والمعاصرة، وتشكلت لديه حالة من الخلط بفعل تداخل الأزمنة الثقافية في فكر المثقف العربي وصار العقل النقدي غير قادر على فهم حاضره، لـ "إن العقل يسعى إلى اكتمال المعرفة، واكتمال المعرفة لا يمكن أن يتحقق بالنقل أو التقليد، لأن الأول إلغاء لوجود الناقل، والثاني إلغاء لعقله فكلاهما إتباع من غير نظر أو التأمل"[37]؛ وبالتالي تجمد فكريا دون أن يحقق النهضة التي ينشدها، وظل يمارس سلطته في إطار التحليل الزمني والأيديولوجي التاريخي الضيق، ولم يرتق إلى درجة التحليل الأبستمولوجي.

وهذا ما ساهم في ظهور شريحة من المفكرين والنقاد المثقفين الذين اطلعوا على منجزات النقد الغربي، تقول بأن أكبر عوامل التخلف في المجتمع العربي المعاصر هو التراث نفسه، نافية عنه كل مظاهر القداسة والفعالية الحضارية، لعدم قدرته على التفاعل مع مستجدات الواقع، ووقوفه سدّا منيعا أمام نجاح عملية المثاقفة الكاملة مع الآخر، وفي ذلك يقول محمد أمين العالم:"...التراث موجود قائم يتحقق كذلك بالفعل زمنيا في لحظة تاريخية اجتماعية معينة، وتراكم هذه اللحظة الزمنية لتشكّل تاريخنا القومي التراثي العام، على أن هذا الوجود التراثي المتحقّق ماديا وزمنيا وتاريخيا ينتسب إلى الماضي، ولهذا فهو تراث أي أنه أثر، حتى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإن بقيت معالمه ماثلة قائمة أمامنا على نحو مادي أو معنوي، على أنه ليس فعلا أقوم به، بممارسته، بتحقيقه ابتداء، وإنما هو تحقيق سابق على وجودي، ولهذا فحقيقته في ذاتها مشروطة بمدى معرفتي بها، وطبيعة موقفي منها، وتوظيفي لها"[38]، فنراهم يتهمون العقل الجمعي بأنه يقحم الدين في كل شيء، وما يترتب عن ذلك من تعصب له يؤثر في جميع مجالات المعرفة، وأنه صاحب ثقافة ماضوية جعلت مقياس النص إطارها الأوحد في القيمة، ويفسرون التطور التاريخي دائما بشكل عمودي من الأعلى إلى الأسفل، وأن مدار المعرفة قد توقف عند تقديس النصوص السابقة وعند شرح الشروح أو حواشي الحواشي بعد أن أوجد لها العقل الجمعي ما يسندها في الماضي، وأن مبلغ العلم هو شرح المتاح وهذا النمط من السلوك المعرفي معاد لثقافة الآخر مهما كانت طبيعته إلى جانب الإقصاء المتعمد للمثقف بصفته "فاعلا اجتماعيا جمعيا يمثل قوة محركة وديناميةاجتماعية، ويمتلك القدرة على إنتاج المجتمع من خلال إنتاج الأفكار والمفاهيم الضرورية لإعطاء أفراد المجتمع هويتهم وتبرير مؤسساتهم وممارساتهم، أو دعوتهم إلى تأسيس حياتهم الاجتماعية على أفكار ومفاهيم تتحول إلى كيان حي قادر على الحركة والتنظيم والتحسين والإصلاح"[39].

لعلاج هذه الكبوة النهضوية التي اعترضت سبيل حدوث المثاقفة النقدية يرى الغذامي أنه يجب" أن تتحرك الأدوات النقدية باتجاه فعل الكشف عن لأنساق، وتعرية الخطابات المؤسساتية، والتعرف إلى أساليبها في ترسيخ هيمنتها، وفرض شروطها على الذائقة الحضارية للأمة"[40]؛ لأن الثقافة النقدية في مجتمعاتنا صارت في حاجة ماسة إلى القيام بثورة معرفية تطلع فيه على المنجزات التجريبية للغرب المتحضر أو تستقبله كما هو، بعدما تبين عقم النقد الإيديولوجي الذي تطبّع بالنمطية المعرفية القديمة بوصفه آلة للاجترار النظري، وربما هذا هو السبيل الأوحد لتحقيق النهضة الثقافية المرجوة، لأن "علاقتنا بالتاريخ تقوم على الجدل والحوار لا على الإنصات السلبي، تماما كما أن تلقينا للعمل الفني عملية جدلية تقوم على ما يطرحه علينا من أسئلة هي التي شكلت وجوده، إن التاريخ مثله مثل الشكل في العمل الفني وسيط يمكن المشاركة في فهمه"[41]، وهذا الأمر نادى به كذلك يوسف الخال قائلا: "إما أن يصبح العالم الحديث عالمنا، أي لا يقوم بيننا وبينه حاجز، فلا يعني أننا أصبحنا تماما فيه، أي أننا تبنينا جميع معطياته ومفاهيمه- الصالح منها والطالح –في حياتنا فلو كان الأمر كذلك لما كانت القضية المصيرية التي تجابه العرب اليوم على اختلاف بيئاتهم هي، كيف ننشئ مجتمعا حديثا في عالم حديث هذا التناقض بين كوننا شكلا في العالم الحديث، وكوننا جوهرا في خارجه يضطرنا إلى معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث ومعاناة قضايا عالم حديث في مجتمع قديم ففي التعبير عن معاناتنا تلك نعرض أنفسنا لإنتاج أدب يجده القارئ الحديث

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعيدا عن قضاياه ومشكلاته، وفي التعبير عن معاناتنا الأخرى نعرض أنفسنا لإنتاج أدب يجده القارئ العربي مستوردا غريبا"[42]، لأن فعل النقد الصحيح -في نظره- هو النقد المبني على الحقيقة والموضوعية، فهو منظومة متكاملة من القيم الأصيلة والتفكير المعاصر والتي يجب أن يكون محور دورانها حول إحساس منتج هذا الخطاب النقدي بالحاجة للتجديد المعرفي خاصة في ظل رفض الخطاب القديم خلق ظروف استنبات ملائمة لتبني المنهجية الغربية في المشهد النقدي العربي، وهذا العمل يجب أن يكون وفق قناعات واعتقادات غربية، وليس المبني على معطيات التفكير المتشبث كلية بالقديم؛ لأن التجديد الثقافي في الاتجاه الحداثي[43] هو عملية معرفية تكوّن جزءا من الثورة الجذرية لبناء العقل النقدي الحديث في صلب المجتمعات العربية التي تعيش انفصاما وعجزا كبيرا في تفعيل القدرة على المشاركة الحضارية مع الغرب، وعلى ذلك فالمعرفة النقدية العربية السائدة اليوم صارت في حاجة ماسة إلى المراجعة الفاحصة والعميقة على مستوى كل مصادرها ومنابع تحصيلها وكيفية تكوّن تأويلاتها الثقافية والفلسفية مع الأخذ في الحسبان إعادة دراسة هذا الإرث التاريخي كموضوع للعملية المعرفية بربط هذا التراث ببقية الحقول المعرفية الأخرى ضماناً لتحقيق فاعليته وامتلاك شرعية الاستمرار والتطور، وبذلك أصبحت "الحاجة ملحة إلى دراسة التراث النقدي عند العرب دراسة منهجية فاحصة ترسم بعدا حضاريا للمقاييس والمناهج والمصطلحات النقدية التي تمرس بها نقاد الأدب العربي القديم كي تصلها بمدارس، وقضايا النقد الحديث التي تستوعب نماذج الإبداع في الشعر العربي، فتّطور القديم للوصول به إلى الحديث، ونضرب الحديث في أعماق القديم"[44]؛ لأن فقه الواقع الحالي للإنسان العربي صار في حاجة ملحة إلى إعادة النظر بدءا من مفهوم الواقع نفسه بالقدرة على تأسيس وعي حقيقي بإطلاق الفكر النقدي العربي من أسر متاهة الأنا والآخر، ويتطلب ذلك ثورة حداثية على ترسبات الأفكار التأريخية والتقاليد المعرفية وفق النظرية التي دشنها العقل الغربي، ف" الحداثة هي اللحظة التي تتمرد فيها الذات العارفة، فردا أو جماعة، على طرائقها المعتادة في الإدراك، شاعرة أنها لا بد أن تبدأ في مساءلة جذرية لكل ما حولها، على كل المستويات، غير غافلة عن وضع نفسها هي موضع المساءلة."[45]

7- **المزاوجة النقدية:** لعل سؤال الحاجة إلى منهجية نقدية مستقبلية يتبناها العقل العربي، بات مطروحا في شكل علاقة عضوية جدلية بين التاريخ والحاضر، وقد أملته الضرورة الفكرية التي تفرضها الوضعية الحضارية للعرب وموقعهم من الحضارة الإنسانية، فالناقد يعيش في حالة انفصال عن منطق التأريخ المعاصر، لذلك صار من الضروري التركيز على البحث عن عناصر الحركة العامة في عالمنا المعاصر بقصد التمهيد لتأسيس نقد وظيفي ومعرفي للمستقبل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كعلم قائم بذاته يواصل تحاليله، وحفرياته التي تدرك حقيقة وعمق الروابط التاريخية بين العرب والغرب.

لذلك أخذ البحث عن هوية نقدية جديدة ظهور طائفة من النقاد يدعون إلى نهضة نقدية ثقافية تقوم على فكرة المواءمة والمزاوجة بين المعالم الكبرى للموروث النقدي والتيارات النظرية في النقد الغربي، وتسلك طريقا يجبر الشرخ الحاصل بين المتعصب للثقافة القائمة على مرجعية النص المقدس والقومية العربية، وبين النائي عنها إلى ثقافة نقدية تقوم على تمكين العقل المادي في كل ما يتعلق بثقافة الإنسان، حيث يرون أن السياق الفكري الثقافي العام لكل المجتمعات الحالية استطاع أن يوجد فيها بدائل عِلمَانِية وعملية بما فيها كفاية عن التراث، بـ"النظر داخل كل إرث من التراث البشري والاجتماعي والبحث عن العناصر التي لها معنى، وتلك التي فقدت معناها وينبغي التخلي عنها في إطار البحث عن حلول عقلانية للمشاكل الكبرى العالمية والعربية، أي مصاغة على ضوء منهج عقلاني، براغماتي يربط النظرية بالممارسة ولا يفصل التجربة التاريخية الخاصة عن التجربة العالمية"[46]، وبالتالي فالعقلية النقدية العربية تستطيع أن تحمل رؤى واقعية وتسلك دروبا جديدة في الحياة الثقافية، مثلها مثل المذاهب النقدية الإيديولوجية الغربية وما نشأ عنها من فعاليات ثقافية تكوّنت من دون وصاية تاريخية لأن الحضارة الإنسانية واحدة، وهذا ما يعتقده برهان غليون الذي يقول ":أنا أعتبر نفسي سليل الفكر الإسلامي والقومي والماركسي والليبرالي والإنساني معا، وناقدا لها جميعا أيضا، فليس هناك تمثل من دون نقد، فأنا أعتبر نفسي ثمرة النقد المثلث للإرث الإنساني الليبرالي والماركسي والقومي ولا أعتبر نفسي غريبا عنه في مكوناته المختلفة، و "أنا سليل هذه المكونات الفكرية بمعنى أنني ثمرة لها وفي الوقت نفسه ثمرة التأمل النقدي فيها""[47]، فطرحوا فكرة عالمية التوجه الثقافي باشتراك مصادرها، وبالتالي جواز النهل من كل الثقافات التي تقود العالم ومنه تطبيق كل آلياتهم النقدية ونظرياتهم في التعامل مع كل النصوص العربية، بالطريقة نفسها التي تُستَورد فيها السلع الاستهلاكية، مادام أن النظرية النقدية وآلياتها الإجرائية متعلقان بشروطهما التاريخية والثقافية والحضارية إلى حد التماهي معهم كما يرى ذلك حميد لحمداني في مقدمة كتابه " الفكر النقدي الأدبي المعاصر"، فيقول أن" الاستفادة من الثقافة النقدية الغربية هي بمعنى من المعاني استفادة من الفكر الإنساني الذي تم تطويره والمساهمة فيه بفعالية عبر مسار تاريخ الحضارة العربية والحضارات السابقة عليها، حتى يتبين لمن يريد أن يضع حاجزا منيعا بين الثقافات أنه لا سبيل إلى الفصل التام بين الثقافتين بحجة تأتي عادة مسكوكة على المنوال التالي: الغرب له بيئته وله ثقافته وقيمه التي تتلاءم مع ظروفه الخاصة، ولنا بيئتنا وثقافتنا وقيمنا التي تتلاءم مع ظروفنا الخاصّة"[48]، فالمثاقفة النقدية العربية بمفهوم هذا التيار وبعد احتكاكها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالآخر يجب أن تتطلع لأكثر من اجترار العادات والتقاليد الأدبية والأطر الفكرية العتيقة، لأنها اغتنت وصارت تشمل كل الفنون من قصة ورواية ومسرح وشعر حر...، والتثاقف النقدي هو تناغم مع فهم الغرب يقصد منه تعميق الحوار الحضاري وتسهيل البحث عن أبعاد جديدة في ثقافة منقسمة على نفسها.

خاتمة

البشر يختلفون حد التباين في ثقافاتهم وعاداتهم وفي نظرتهم للأشياء باختلاف طبيعة المكان وظروف الزمان وعلى ضوء هذا الاختلاف تتأسس انتماءاتهم الحضارية إلى جانب عاملي الانعزال والتجاور الناتجين عن الرغبة في التميز وتأكيد الذات، وعلى ذلك تتحدد هوية كل حضارة وفق رؤيتها وفهمها للطبيعة وما وراء الطبيعة وقيمة وجودها كحضور إنساني بحسب طبيعة التفسير وفهم الرابط الذي ترتضيه أو تعتقده كائنا بينهم، وغالبا ما يستلزم تشكل معالم الهوية الفكرية والنقدية صراعات ونقاشات عقلية تدوم لفترات متصلة أو متقطعة من الزمن، تحتك فيها مع حضارات مختلفة عنها دينيا وثقافيا وعلميا، وإذا أردنا أن نقارب مفهوم التثاقف العربي مع الغرب ونستشرف مستقبل النقد الثقافي والهوية عند العرب يمكننا أن نقول:

- شكّل التقدم الهائل للعقل الغربي وتميزه في طرق ابتكار المناهج النقدية التجريبية، وربطها بكل العلوم التقنية نهضة حضارية موضع انبهار وجذب، وهذا ما شتت صف النقاد والمثقفين العرب وجعلهم يحسون باتساع الفجوة الزمنية والحضارية التي تفصل الإنسان العربي المعاصر عن تطور نظيره الغربي، حتى جعلت بعضا منهم يقتنع بأن الانفتاح على ثقافته هو السبيل الوحيد الذي يمكن أن يجعل ثقافاتهم المحلية عالمية، وأول خطوة في تحقيق ذلك هو البدء بممارسة القطيعة المعرفية مع الماضي، لأنه الحل الأمثل لتحقيق الوثبة النهضوية.

- حمل هذا التقدم أيضا، بعض النقاد العرب على ترسيخ الاعتقاد بأن عملية المثاقفة الكاملة بين الشمال والجنوب، تمثل تنكرا لمنجزات حضارتهم التي تقوم على النص الديني والقومية العربية، وأجمعوا على أن السير في هذا الدرب يعتبر خيارا صعبا وانتحارا عن وعي؛ لأن الآخر يمكن له أن يدمرهم ككيانات حضارية في حال السيطرة الأحادية، فصار النقد يعيش تيهًا بين واقع الحاضر وإشكالات الهوية النقدية المتكونة في ظل تناقضات سلطة تفسير النص الأدبي المقيدة سلفا بمعطيات اللغة والزمان والمكان وسلطة تفسير المقدس الذي يُمثَل فكريا على أنه لا يدرك بما انه وحي إلهي يحمل منظومة عقدية مرتبطة بالغيب تقيّد العقل.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- التثاقف موجود في تاريخ كل الأمم؛ لأنه لا ينشأ بمعزل عن أشكال التفاعل الحاصل بين المعارف والفلسفات السابقة عليها، وأنه يتطور كلما توفرت عوامل الالتقاء والاطلاع بين هذه الثقافات، لما يحمله مبدئيا من أوجه التشابه بينها من حيث الأصول والأهداف.

- الثقافة والنقد عند الغرب مفهومان مركبان يجمعان بين تناقضات المظاهر المادية والإبداعات الفكرية ولا يعتمدان أبدا على قدسية النصوص أو على مرجعية موحدة، وبالتالي لا يمكن بأي حال، حصرهما في مناهج معينة أو رد فعاليتهما الحضارية إلى مرجعيات معرفية حادثة في زمان ومكان معينين، أو بإصدار أحكام قطعية وصارمة تضع التثاقف بديلا للهوية التراثية.

- يجدر بالعقل النقدي العربي القائم على عالمية النص الاتجاه دون قيد نحو اقتباس فلسفة التجديد النقدي الغربي، بالتحول المعرفي صوب ثقافة عالمية واحدة تلغي الحدود بين الثقافات، بما أن أصل وجودها هو عالمية التفكر القائمة على ثورة العقل الحضارية المتشابكة مع خصوصيات الإنسان التاريخية والجغرافية، ويكون بالانتقال الاجتماعي من إطار العشيرة والقومية إلى العالمية الإنسانية، وهذا أمر يحتاج بالضرورة إلى نوع من النقد المعرفي الذي يتحلى بالمسؤولية والوعي التاريخي.

- الفكر النقدي العربي مدعو لنقد ذاتي عميق من دون جلد لها أو استهتار بتاريخها، وبأن يتحرر آليا من ضيق الإيديولوجيا وينتقل إلى عالم الأبستمولوجيا، متبعا في ذلك طريقة التجديد الفكري لمعرفة جميع الظواهر الآنية وتفسيرها بدقة للوصول إلى الحقيقة العلمية؛ أي أن يتتبع ويدرس كل مظاهر الثقافة والتطور الحاصل على مستوى الإنتاج الفكري الغربي، بالوقوف على جزئيات مظاهر التغير التي أصابت أسس ثقافته ببعديها المادي والفكري في ضوء سياق التثاقف الكوني.

- الوعي بالقضايا النقدية العربية الكبرى يبدأ بالأساس من الوعي بالقضايا الجزئية؛ أي بدراسة إشكاليات التقدم والتمدن وقضايا القومية والمواطنة ومسائل التنمية والعدالة الاجتماعية والحريات، وكذلك بالقدرة على تأسيس فهم منهجي للماضي أو التراث فهما عقلانيا تركيبيا، لأنه "فرق بين من يعود إلى الماضي ليثبت أو يؤكد وضعا متخلفا في الحاضر، وبين من يعود إلى الماضي ليؤصل وضعا جديدا قد يطور الحاضر نفسه، وينفي بعض ما فيه من تخلف وتأصيل الجديد يعني أن نقتله علما، لنعرف أصله الذي جاء منه، وأصولنا التي يمكن أن تنقله وتدعمه، وبمثل ذلك يؤصل الجديد، أي يصبح له أصل، ويتحول إلى قوة مؤثرة كل التأثير، بعد أن وجدت أصلا تضرب بجذورها الفتية فيه"[49]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- التراث النقدي العربي خضع لجملة من القراءات المكانية ولتفسيرات إيديولوجية متعصبة دون معيار علمي والتي عملت على تكييف الوقائع وتوجيهها وإقصاء المعارض لها، وفقا للميول الأيديولوجية لمفسريها بحسب كل مرحلة من مراحل التاريخ العربي، حتى غدا ذلك التقليد في القراءة التاريخية شائعا كما لو كان مؤسسا على منهجية علمية تدعي الحياد وتتّخذ مسافة من الأحداث، بينما الواقع يشير إلى العكس من ذلك تماما .

- النص التراثي هو أيضا بنية نقدية مفتوحة تتضمن شحنة تاريخية، والاكتفاء بقراءته من زاوية واحدة، تجعله يتوقف عن الاستمرار والتجديد، لأنه نشأ وتطور وفق نسيج من العلاقات المعرفية والتاريخية في ظرف سياقات ثقافية وفكرية وزمانية، والقراءة التي لا تنظر إليه من جهة لا زمانيته هي قراءة أحادية لا تستهدف منه إلا الانتقاء، لأنها تقصي الكثير من الأنساق التي ساهمت في إنتاجه.

- إنشاء ثقافة أو هوية نقدية مستقبلية قادرة على العطاء تعتز بماضيها دون تقديسه ولا تنكر خصوصية الثقافات المغايرة لها، يكون بالاعتماد على النقد الواقعي والآني وهذا يستلزم دون خجل أو تحفظ الكثير من آليات المنهج التجريبي، قصد بناء المعرفة المستقبلية وبلوغ الحقيقة، لكي يستطيع العقل العربي إعادة صياغة الكثير من المفاهيم التاريخية المسلم بها، بما أن هذه الآليات تعمل على تسطير تنظيرات منهجية يتم وفقها مقاربة النصوص وتفسيرها ضمن سياقاتها وبآلياتها الخاصة.

مراجع البحث وإحالاته:

---

1 عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، النادي الأدبي الثقافي، ط1، 1985، ص14.

2 رولان بارت، اللغة والخطاب الأدبي(مقالات لغوية في الأدب)، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1993 م، ص53

3 غيورغي غاتشاف، الوعي والفن، دراسات في تاريخ الصورة الفنية، عالم المعرفة ع 146، تر: نوفل نيوف، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1990، ص33

4 مشير باسيل عون، الفسارة الفلسفية بحث في تاريخ علم التفسير الفلسفي الغربي دار المشرق، ط1، 2004، ص127

5 ليس القصد من وراء هذه التمهيد، الدخول في متاهة سجال نقدي حول إيجابيات العقلانية الغربية أو تحليلها أو اجترار فلسفتها وتتبع تطورها منذ عصر الأنوار، لأن غرضنا الرئيس وراء هذه المقالة هو رصد مظاهر التثاقف النقدي، وطرح بعض الإشكالات التي تعيق فعالية تطور النقد في مختلف حقول الثقافة العربية، وتحول دون تجاوز الواقع منذ هزيمة 1967، حيث بدأت رياح الوعي النقدي الغربي تهب بقوة على العقل العربي الحديث، ومحاولة الكشف عن مستويات تجلي التثاقف النقد الغربي في الفكر العربي.

6 voir :F. nietzsche, la volonté de puissance, traduction. genevieve bianquis, gallimard.Paris.1947 t2 p.59

7 ديكارت رينيه، مقال عن المنهج، تر: محمود محمد الخضيري، دار الكاتب العربي، القاهرة، ط2، 1968، ص4

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

8 أفلاطون، الجمهورية، تر: حنا خباز، دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط5 ، دت، ص206

9 ديكارت رينيه، مقال عن المنهج، ص 109

10 غيورغي غاتشاف الوعي والفن عالم المعرفة عدد146 فبراير1990، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت ص28

11 RENE DESCART.DISCOURSE ON METHOD AND MEDITATION ON FIRST PHILOSOPHY.TRANS BY DONALD ACRESS. 4ED HACKETT PUBLISHING France.P15

12 "التنوير هو تحرر الإنسان من قصوره في الفرض على نفسه، والقصور يعني عجز المرء عن استخدام فهمه دون توجيه جهات أخرى، وهذا القصور لم يُفرض بسبب نقص في الفهم بل بسبب نقص في العزم والشجاعة على استخدام الفهم دون توجيه الآخرين[*Sapere Aude !* .اجرؤ على المعرفة] تحلَّ بالشجاعة على استخدام فهمك" ينظر:كريم اللحام، تأمّلات في بنية الإطار المفهومي عند محمّد شحرور، مؤسسة طابة، الإمارات العربية، 2012، ص3

13 ديكارت رينيه، تأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1969، ص 73

14 مهدي فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2، 1986، ص11

15 راوية عبد المنعم، جون لوك إمام الفلسفة التجريبية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، 1996، ص54

16 ليبنز غوتفريد ولهلم، أبحاث جديدة في الفهم الإنساني، تر: أحمد فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، دط، 1983، ص54

17 أليكس ميكشللي، الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم دمشق، ط1، 1993ص29

18 David Huim: traité de la nature humaine, aubier montagne, Tome 1, traduit: André leroy, paris, 1962, p52.

19 أميرة حلمي مطر، جمهورية أفلاطون، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1994، ص ص34، 33

20 أليكس ميكشللي، الهوية، ص39

21 إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، تر: موسى وهبة، مركز الإنماء القومي بيروت، 1988، ص45

22 ويل وايريل ديورانت، قصة الفلسفة، تر: عبد الله المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط5، 1985، صص:335،336

23 ويل وايريل ديورانت، نشأة الحضارة، مج1، ج1، تر: زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، ص6

24 حسين مؤنس، الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، عالم المعرفة، ع 237، الكويت، 1998، ص ص:15، 16.

25 " القيم هي الأساس الضمني لأي نموذج ثقافي، وهي تحتوي معايير للسلوك، ذات صفة مميزة، تلك هي مثلا حالة قواعد اللباقات وأصول الآداب والقواعد التي تنظم الطقوس والشعائر والكثير من المعايير التي تقود أفعالنا وتوجهها في حياتنا اليومية. وسلطة هذه المعايير والنماذج الثقافية لا تعتمد على القوة بقدر ما يعتمد على الانتماء إلى القيم، لذلك فالارتباط وثيق بين القيم والنماذج الثقافية" عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2006، ص140

26 حسن البنا : مجموعة الرسائل، دار الدعوة، الإسكندرية، ط 1، 2002م، ص 68.

27 خالد الغريبي، الشعر التونسي المعاصر بين التجريب والتشكل، دار النهى، صفاقس، ط1، 2005.ص 21

28 محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط7، 1998م ص 29.

29 ينظر: حسن فتحي ملكاوي، نحو نظام معرفي إسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، ط1، 2000م، ص 119 وما بعدها.

30 فهمي هويدي، أزمة الوعي الديني، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ط1، 1988م، ص 44

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

31 ينظر: رشدي فكار، نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع خلال القرن الرابع عشر الهجري، مكتبة وهبة، القاهرة ط 1، 1980م، ص 32.

32 الكندي، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، رسائل الكندي الفلسفية، تح: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1950، ص60

33 عبد السلام بنعبد العالي، التراث والاختلاف، دار التنوير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1985، ص15.

34طه حسين، حديث الأربعاء، المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، دت، مج2، ج3، ص: 633.

35 هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، د.ط، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ، 1973 م.ص14

36 بنيس محمد، الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاتها مساءلة الحداثة، ج 4، دار توبقال، ط3، 2004، ص137

37 جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيبال، قبرص، ط1، 1991، ص124.

38 محمود أمين العالم، مواقف نقدية من التراث، دار قضايا فكرية، مصر، 1997، ص 6

39 برهان غليون، تهميش المثقفين ومسألة بناء النخبة القيادية في: المثقف العربي، همومه وعطاؤه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995، ص ص 85، 86

40 عبد الله الغذامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 2005م، ص15.

41 نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1992، ص42

42 شكري محمد عياد، المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، عالم المعرفة ع177، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت، 1993، ص ص7، 8

43 "الحداثة في جوهرها عملية انتقالية تشتمل على التحول من نمط معرفي إلى نمط معرفي آخر يختلف عنه جذريا، وهي انقطاع عن الطرق التقليدية لفهم الواقع، وإحلال أنماط معرفية وفكرية جديدة" هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، تر: ماهر شريح، دار نلسن، السويد، 2000، ص 39

44 المعطاني عبد الله سالم، أثر البيئة في المصطلح النقدي القديم، قراءة جديدة لتراثنا النقدي، ج2، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1990، ص236

45 جابر عصفور، نحو ثقافة مغايرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2008، ص13

46 برهان غليون :العرب وتحولات العالم من سقوط جدار برلين إلى سقوط بغداد، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2007، ص279

47 المرجع نفسه، ص 278

48 ينظر: حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريّات ومواقف، منشورات مشروع البحث النقدي ونظريّة الترجمة،. كليّة الآداب ظهر المهراز، فاس، ط5 ص 229

49 جابر عصفور، مفهوم الشعر: دراسة في التراث النقدي، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط1، 1979، ص12.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com